الفصل السادس عشر

قلت للشيخ :

ـ ألاحظ يا سيدي أنك بدأت الحديث بدءاً من وجود النور ، ثم انتهيت بعد عمليتي نزول وعروج إلى النور نفسه ، وفسرت الوجود بأنه النور ، وقلت إن الوجود المادي هو تكثف النور اللطيف . وأنا أرى أن هذا البرهان على وجود النور اللطيف غير كاف . مثلاً إن قضية تكثف النور لا يمكن اعتمادها لا منطقياً ولا علمياً . . إنها افتراض فحسب أو كما قلت أنت إن الكشف هو الذي دل عليها . مثلاً أبو المادية قال عن اكتشاف الذرة : (المكتشفات العلمية الأخيرة تزيل الحدود التي نعرفها عن المادة . فقد كان آخر ما عرفناه عنها إنها ذرة ، وأصبح ما نعرفه عنها اليوم إنها اليكترون ، وغداً سوف يزول ذلك أيضاً) .

اكتشاف الذرة إذن لم يجعل أبا المادية يكف عن اعتقاده بأن المادة هي الوجود وأن ليس ثمة وجود سابق على هذا الوجود .

ضيق عينيه وهو يثبتهما فيّ ثم قال :

ـ إذن أنت تريد أن تثبت وجود الله عن طريق منطقي أو علمي .

ـ هذا ما أطمح إليه ياسيدي . . ثم أليست هذه مهمة الفلسفة ؟

هز رأسه على طريقة بندول الساعات القديمة وقال :

ـ الفلسفة لم تنجح في هذه المهمة . الفلاسفة المثاليون انطلقوا بدءاً من وجود الماهية والفلاسفة الماديون انطلقوا بدءاً من الوجود الموضوعي . أليس هذا الخلاف هو السبب الذي جعل ماركس ينتقد فلسفة أستاذه هيغل عندما قال إن فلسفة هيغل تقف على رأسها وأنه هو ـ ماركس ـ من جَعَلها تقف على قدميها ؟

ـ هذا صحيح يا سيدي .

ـ إذن إثبات وجود الله منطقياً ، كما تثبت صحة النظريات الرياضية كأن يكون مجموع اثنين واثنين أربعة أمر غير ممكن .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لكي تكون الأخلاق هي الطريق الوحيد إلى إثبات وجود الله لا العقل .

ـ الأخلاق ؟

ـ أجل الأخلاق .

جعلت أهز سبابتي متسائلاً بدهشة :

ـ الأخلاق ستثبت وجود الله ، كيف ؟

ـ المسألة بسيطة ، ولننطلق من أرضية واقعية . أنت ترى أن كل محاوراتنا الصوفية تدور حول موضوع الله وأسمائه التي بها يعرف ، وأنه سبحانه صرح بأنه ما خلق هذه الأسماء إلا ليعرف بها .

قلت معترضاً :

ـ ولكن البحث في الأسماء ضيق ومحدود ، بل إنه في حاجة إلى تخصص عال كما صرح ابن عربي عندما سألوه لم فتنت الناس بكتابة الفتوحات قال كتبته للخواص لا للعوام .

ـ يا بني أنت بتصريحك هذا تعيد بحث الأسماء إلى دائرة العقل والمنطق من جديد دون أن تدري .

ـ ولكن كل بحث يحتاج إلى عقل يا سيدي .

بسط يده بحركة سريعة وقال :

ـ إلا الأخلاق .

ـ كيف ؟

ـ في مجال الأخلاق يستوي العالم والجاهل ، الكبير والصغير ، بل يستوي فيه المؤمن والملحد ، بل ويستوي فيه الإنسان والحيوان .

ـ ماذا ؟

ومددت عنقي من العجب كما يفعل الديك عند الصياح . وضحك هو وعاد يردد :

ـ أجل يستوي فيه حتى الإنسان والحيوان .

ـ هذا تصريح خطير يا سيدي .

ـ حسناً خذ مثلاً كلمة العدل . ألست ترى أن الناس جميعاً مجمعون على ضرورة تحقيق العدل ؟

ـ هذا صحيح .

ـ حتى المجرم والقاتل .

ـ كيف ؟

ـ إسمع أي دفاع أحد من هؤلاء عن نفسه تجد أن دفاعه تبرير ، تبرير لما فعل ، فهو مظلوم أو هو مضطر أو قد كان في موقف المدافع عن نفسه . لا أحد يرتكب ذنباً فيصرح علناً بأنه قد ارتكب الذنب حباً في الذنب ، أليس كذلك ؟

ـ لا ، طبعاً .

ـ فبم تفسر إجماع الناس على الإيمان بالعدالة ؟

ـ لكي يضمن كل إنسان حقه ، ومن غير العدل لا يمكن أن يتحقق للإنسان ذلك .

ـ قولك يعني أنه قد سبق الإيمان بالعدل فترة طويلة من التاريخ البشري لم يكن الإنسان قد وعى فيها مضمون هذه الكلمة ولا أهميتها بل ولا حتى مدلولها ، أليس كذلك ؟

ترددت في أن أقول نعم أولاً . . وتابع هو :

ـ أولاً على الصعيد الديني نجد لدينا قصة ولدي آدم هابيل وقابيل ، وفي الكتب السماوية نجد أنه لما قتل قابيل هابيل جعل يفكر في طريقة ما لإخفاء آثار جريمته حتى وجد غراباً يحفر الأرض ويخبىء فيها شيئاً فاهتدى إلى الطريقة التي يخفي بها الجثة . والقصة ذات مدلول وهو أن قابيل وعى أنه ارتكب جريمة وأتى ذنباً ولهذا أسرع في التخلص من جثة أخيه ، أليس كذلك ؟

ـ أجل .

ـ والآن قل لي ألا تعني القصة أن العدل والظلم قضية ذات علاقة بالشعور والوجدان قبل أن تكون ذات علاقة بالعقل والادراك . لو نظرنا إلى قضية قابيل لكان الأقرب إلى المعقول ألا يفزع قابيل مما فعل وألا يبالي بما ارتكب . . لأن العقل لدى قابيل كان بدائياً كما هو واقع الحال . عقله بالملكة كما يقال بلغة الفلسفة .

ـ هذا صحيح ياسيدي .

ـ موقف قابيل يدل إذن على أن الشعور بالذنب هو شعور . . شعور فقط .

قلت محتجاً :

ـ هناك العديد من الشواهد التاريخية تدل على أن تقويم العدل والظلم هو أمر نسبي . لنتذكر آكلة لحوم البشر فهم لا يشعرون بالذنب وهم يظفرون بصيد بشري فكيف . .

قاطعني قائلاً :

ـ ألست تعتقد بأن لآكلة لحوم البشر قوانين . . قوانين وعادات وأعراف ؟

ـ طبعاً ، ولكن هذه العادات والأعراف نسبية . . إنها تختلف أختلافاً كلياً عن عادات وأعراف الإنسان المتحضر .

ـ تعني أنها ليست من الكليات .

ـ لا طبعاً وإلا لما قبلوا جميعاً أن يأكلوا لحوم البشر .

ـ يا بني قضية أكل لحم البشر قد تكون من المصادفات . قد تكون الظروف أحوجتهم إلى ذلك . ولا تستخفن بتأثير الظروف . أنت تجد في الفقه أنه يحل عند الحاجة ما يحرم حتى لحم الميتة ولحم الخنزير . ولكن ثق بأنه حتى آكلة لحوم البشر يؤمنون بالعدالة إيماننا نحن المحدثين بها . أترى أن حوار الهنود الحمر ، وهم سكان أمريكا الأصليون ، مع الغزاة من البيض لم يكن موضوعه العدل ؟ ألم يحارب الهنود سكانُ البلاد في سبيل قضيتهم العادلة . إن الأفلام التي أخرجتها الولايات المتحدة نفسها تظهر أن الهنود الحمر طالبوا بالعدل وتحقيق العدالة وإنهم لم يختلفوا في الأخلاق ولا في وعي الكليات عن البيض أنفسهم وأنت لو درست أية ديانة وثنية تجد أن جوهرها جوهر أية ديانة أخرى . (وقاطعني بسرعة قبل أن أهم بفتح فمي) قلت الجوهر لا القشور من العادات والطقوس . . ثم لم ترانا نعود إلى التاريخ وأمامنا الواقع وما فيه . نحن نبحث في العدل ، ووجهة نظري أنه شعور قبل أن يكون وعياً وإدراكاً ، ودليلي الأطفال . . أجل الأطفال الذي هم مثال المشاعر لا الأدراك . أنت ترى الطفل يتعلق بأمه أولاً وبأبيه ثانياً . . يتعلق بها لأنها نبع الحنان والعطاء . ولئن سألت الطفل عن معنى الحنان والعطاء لما استطاع أن يعبر ولما تمكن من أن يجيب . . إنه محتاج إلى الحنان حاجة غرزية ، ولأن أمه تسد عنده هذه الحاجة فهو يحبها . وتجد الأطفال مثل ميزان الحرارة يحبون الآخرين بقدر ما يحبهم الآخرون ، وينفرون من القساة بقدر ما يقسو هؤلاء عليهم . والحنان والعطاء كليات ، ومع هذا فكيف يمكن لوعي الطفل أن يرقى إلى إدراك هذه الكليات ؟

وإذا انتقلت من عالم الأطفال إلى عالم الحيوان نجد الموضوع قد تبلور أكثر . فلئن كان الطفل يقف علىٰ أول درجة من درجات الوعي فإن الحيوان محروم من هذا الوعي بصورة شبه تامة . إنه يعي وعياً حيوانياً إن صح القول . إنه يحب صاحبه بدوره ويعلقه ، ويبلغ حب الكلب لصاحبه أنه إذا مات صاحب الكلب لازم الكلب ضريح سيده وأضرب عن الطعام حزناً حتى يموت

بدوره . وباستطاعتك أن تتبين نظرة الشكر في عيني قطة أحسنت إليها فأطعمتها ، كما أنك تجد نظرة التحدي والبغض في عيني قطة نهرتها أو ضربتها ضرباً موجعاً . وهذه كلها بالطبع مشاعر ، ومع هذا فإن هذه المشاعر تعبر عن كليات ، عن الخير والعطاء والحب والحق والعدل وما شابه فما قولك في هذا ؟

لبثت جامد البصر أرى الشيخ ولا أراه . ففي داخلي كان ثمة إنفصام غامض . يا إلهي ، كم مرة أشعرني الشيخ بأنني أتنقل في الأجواء . أطير من جو إلى جو وأسبح في أفلاك . . أخرج من فلك وأدخل في فلك . كم مرة شعرت وأنا أستمع حديثه أنني إزاء إنسان أسطوري ساحر ، له كل قدرة السَحَرة القدامى على أن يحدث فيّ التأثير الكافي لأن يجعلني أشعر بأنني لم أعد أنا ، وبأنني قد اتسعت ، كبرت ، كبرت حتى صرت غمامة ، سحابة ، وأنني انقلبت طيراً ، طيراً من نوع النسور يحلق في عالي السماء .

الكليات هي مشاعر قبل أن تكون وعياً وإدراكاً . منذا الذي يخطر بباله وجود حقيقة كهذه الحقيقة ؟ وإذا كانت الكليات مشاعر ويتساوى في عيشها الإنسان والحيوان ، الكبير الصغير ، العبقري والأبله ، فلم سعى أفلاطون سعيه وبذل ما في وسعه لتعريف الكليات ، ولم وضع فيها المحاورات ؟

كان هو ينظرني متأملاً ثم استطرد قائلاً :

ـ وبعد فما هي الكليات ؟ إنها أسماء الله الحسنى . ولئن تذكرت مثال الشمس والأشعة لوجدنا أن الأسماء لا تنفصل عن الله لانها ظله ولأنها قواه . هي الرحمة الرحمانية الضرورية للحياة . ونحن لا نرى ولكننا نرى الأسماء ، نرى ونحيا بفضل هذه الآثار . وما دامت الأسماء موجودة وهي قوى وقوانين وأنظمة فعالة فالوجود الإلهي بالتالي هو وجود فعلي بدليل أسمائه . ومن يعش في ظل رحمة من آثار الرحمن ومن يك ممثلاً لاسم من أسمائه كالمعز أو القوي أو الكريم فهو بالتالي مؤمن إيماناً غرزياً وبدهياً بوجود الله . ومن هنا ولهذا السبب فإن الله لا يبحث عنه بالعقل والفكر ، ولهذا قال العارف بالله رسلان الدمشقي (من يطلب الله بالعقل يضلل) . ولهذه الأسباب تجد أن المؤمن مؤمن بالفطرة

منذ الصغر ولا حاجة له في إعمال عقله ليصل إلى الله ، وهو إن أعمل عقله اعتمد أصلاً فطرته المؤمنة التي هي موجودة فيه بالقوة . أنت ترى أن كثيراً من الفلاسفة عدوا قضية وجود الله مسألة مسلماً بها ولا ضرورة لإثباتها ، لأن الموجود المحدث يدل على الوجود الأصيل ، والموجود المحدث قضية مسلم بها ، كما قال ديكارت أنا أفكر إذن أنا موجود . ولأن الموجود المحدث يدرك بداهة أنه فقير إلى وجود أصيل وإلى موجد قائم بذاته فهو يسلم بالتالي بوجود الله دون الحاجة إلى إثبات هذا الوجود عقلياً ومنطقياً . ومن الفلاسفة الذين انطلقوا من مسلمة بدهية بوجود الله اسبينوزا وفشته وهيغل وكانط ، ومن قبل هؤلاء الصوفيون ابن عربي والغزالي والسهروردي وغيرهم كثير .

قلت : أنت قلت يستوي في قضية وجود الله المؤمن والكافر ولقد علمنا كيف ينظر المؤمن إلى هذه القضية ، وقلت إن الايمان فطرة ، ولكنك لم تتعرض بالحديث عن الكافر .

داعبت أصابعه كعادته سبحته وقال :

ـ مثلما أن الإيمان فطرة فالكفر فطرة .

ـ نعم ؟ ! . . .

قلتها وأنا من الدهشة في الغاية . فلأول مرة في حياتي أسمع مثل هذا القول العجيب . الكفر فطرة ؟ ! . . يا إلهي ، لئن أعلن صوفي هذا فما الذي بقي من الصراع الذي عاشته الإنسانية منذ أقدم العصور حتى الآن . . أين ذهبت المعارك اللانهائية بين المؤمنين والملحدين حول هذه القضية . . كل فريق يحاول جاهداً أن يؤيد وجهة نظره بالأدلة ، وكل يصرخ في واد ، فلا المؤمنون يكفرون ولا الكافرون يؤمنون .

قال الشيخ :

ـ لا تنسى الأسماء يا بني ، لا تنسى أسماء الجمال وأسماء الجلال . يا بني الغرابة بمكان أن يوجد على ظهر الأرض كلها كافر واحد فقط ، كان والدي

عليه رحمة الله يعجب لظاهرة الكفر فيقول لي كيف كفروا بالله يا بني وهم يرون هذا الكون وما فيه ؟ هل يعقل أن يرى الانسان الوردة ويشم شذاها ، ويرى البحر وعظمته ، ويرى الإنسان وعجائب صنعه ، ويرى السحاب والمطر والشتاء والربيع ، ويرى الحيوان وكيف يحيا . . هل يعقل أن يرى إنسان عاقل هذا كله ولا يعترف بأن لهذا الكون صانعاً ؟ ولقد كان أبي محقاً ، وكنت أحاول إقناع أبي بما أحاول أن أقنعك به الآن . أحاول أن أبين له أن الكفر فطرة مثلما أن الإيمان فطرة فيأبى أن يصدق . والحق يا بني أنك لو قرأت وصف الامام الغزالي لبعض الحشرات كالبعوضة وعجائب صنعها والطير والحكمة من خلق جناحيه وحلقه وجوفه ومنقاره وعينيه وحذره وبنائه عشه ورحلته في الشتاء والصيف لو قرأت هذا لقلت إن من المستحيل بالفعل ألا يكون الطير هو من صنع خلاق عظيم لا حد لعظمته وإبداعه . ولكن المسألة كما قلت لك لا ينظر إليها من خلال منظار العقل . والدليل أن من الكفار العالم والفيلسوف والشاعر والأديب والقائد ، فكيف يكون هؤلاء على ما هم فيه من باع في هذه الميادين ، ثم يكفرون ؟

قلت وقد تفاقمت حيرتي :

ـ بالفعل أنا لا أتصور أن يكفر الكافر وهو يرى هذه الآيات الكونية . . ما الذي جعله يكفر ؟

ـ عينه .

ـ عينه ؟

ـ أجل عينه ، صفته ، اسمه .

ـ ولكن الأسماء لله .

ـ أجل ومنها كما قلنا اسماء الجلال وأسماء الجمال . أسماء الجمال مشعة عن جانب النور ، وأسماء الجلال تابعة لجانب الظلمة ، وقلنا أن لا بد من وجود الظلام لكي يظهر النور ، وأوردنا في الحديث قوله عليه السلام إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من مد إليها بصره . فالنور والظلمة إذن حجاب ، ويدعي هذا الحجاب بستارة الأسماء ، وكما النور حجاب الله كذلك الظلمة . فأسماء الجلال التابعة لحجاب الظلمة هي

التي حجبت الكافرين بحجاب أسماء الجلال ، ولهذا قال ابن عربي إن معنى كَفَر سَتَر ، فالله في الكفر مستور بحجابه .

قلت غير مصدق :

ـ الله هو الذي أراد للكافرين أن يُحجبوا عنه ؟

ـ طبعاً ، حاشاه أن يخرج شيء على إرادته .

ـ ولماذا حجبهم عنه ؟

ـ لتؤدي أسماء الجلال دورها .

ـ ولماذا تؤدي دورها ؟

ـ ليفض مكنون أسماء الجمال . يا بني ما عُرف الله إلا بفضل الصراع بين أسماء الجمال وأسماء الجلال . ولولا هذا الحوار الأبدي بين الأسماء ما قام للأسماء وجود ولما قام لله بالتالي وجود أيضاً .

قلت وأنا أكاد أخرج من جلدي :

ـ لم يقم لله وجود . . ما هذا الكلام يا سيدي ؟

ـ يا بني صدق أن الأمر كذلك . لقد جعل فلاسفة الواحدية في الفلسفة جعلوا الواحد يضع بنفسه مقابل ذاته جزءاً من طاقته ابتغاء أن يتغلب على ذاته ، وأن يستولي من خلال الصراع على امتلاء حياته ، أي أن يكتسب حياة بهذا الغزو المستمر الذي هو في الواقع غزو من الذات إلى الذات .

قلت مقراً :

ـ أجل ، قال هذا فشته وهيغل .

ـ وانتهوا إلى الإيمان بأن الله ما كان إلهاً إلا بفضل هذا الانشقاق الذاتي .

قلت :

ـ وكيف ينشق الله انشقاقاً ذاتياً يا شيخ ؟

ـ لا تنس الأسماء يا بني ، لا تنسى أسماء الجمال وأسماء الجلال . يا بني قيمة الكرة ليست في السوق بل في الملعب ، ولولا الملعب ما كان للكرة قيمة وما

كـانت الجائـزة التي تمنح للفـريق الفائـز تمثل كـرة ذهبية لا حـد لقيمتها الـذاتية والحقيقية . الرياضة واحدة والرياضيون كثر ومع هذا ففيها الصـراع لاستخراج مكنونات اللعب بالكرة .

يا إلهي ، عاد الشيخ إلى اللعب بي كما يلعب الرياضيـون بالكـرة . . عاد يضرب الأمثال التي ضربها دانتي حين سمى ديوانه الفذ (الكـوميديـا الإلهية) . آه ، أين أنت يا دوستويفسكي لترى ما آل إليه ألمك ومعاناتـك من ألمك . أنت تصرخ منشقاً من الألم والصوفي ينادي بأعلى صوته أن الله يلعب ليحقق ذاته ، يا رب ، غفـرانك ، عفـوك ولا تؤاخذني . . أرجـوك ألا تؤاخذني ، فهـذه اللعبة رهيبة وتثقل عـلي ، تثقل عـلي يا رب . آه ليتني ، ليتني لم ألتق هـذا الشيخ . . ليتني بقيت في جهـلي ، في رحابـة جهلي . فعـلى هذا المسـرح الـدامي ينبغي أن يوجد نظارة يبكون لا يضحكون أو يتفلسفون أو يتعلمون كما أراد الشيـخ لي أن أكون .